مجالات العِبَادة في الإسْلام

- مجالات العبادة كما بيّنها الإسلام.
- من اتبع غير منهج الله فقد أشرك في عبادته.
- الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة.
- صحح وجهتك تكن كل حياتك عبادة.
- شمول العبادة لكيان الإنسان كله.
- مراتب العبودية الخمسون موزعة على القلب والبدن.
- أي العبادات أفضل؟.

obeikandl.com

obeikandl.com

مجالات العبادة كما بيّنها الإسلام

عرفنا أن رسالة الإنسان في هذه الأرض أن يعبد الله الذي خلقه فسوّاه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

وعرفنا معنى العبادة. وحقيقتها في اللغة والشرع.

وبقي أن نعرف صور العبادة وأنواعها ومظاهرها ومجالاتها. وبعبارة أخرى: علينا أن نعرف جواب هذا السؤال: بماذا نعبد الله تعالى؟

إذا كان الله قد خلقنا لنعبده، أي لنطيعه طاعة مصحوبة بأقصى الخضوع، الممزوج بغاية الحب، ففي أي شيء تكون هذه الطاعة؟ -طاعة الخضوع والحب- وفي أي مجال يجب أن تكون؟ إن الجواب عن هذا التساؤل سيبين لنا حقيقة هامة، هي: شمول معنى العبادة في الإسلام، وسعة آفاقها. وهذا الشمول له مظهران:

الأول: شمولها للدين كله وللحياة كلها.

الثاني: شمولها لكيان الإنسان كله ظاهره وباطنه. كما سنشرح ذلك فيما يلي.

● شمول العبادة للدين كله

لقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ فأجاب رحمه الله عن ذلك إجابة مبسوطة مفصلة تضمنتها رسالته المعروفة باسم «العبودية» وقد بدأها بقوله:

«العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة».

«وكذلك حب الله ورسوله ﷺ وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله»[1] اهـ.

وهكذا نجد أن للعبادة -كما شرحها ابن تيمية- أفقًا رحبًا ودائرة واسعة، فهي تشمل الفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج.

وهي تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وهي تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد، كبِرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان.

وهي تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

كما تشمل ما نسميه بـ «الأخلاق الربانية» من حب الله ورسوله ﷺ وخشية الله، والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه.

وأخيرًا تشمل العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياج ذلك كله وملاكه وهما:

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (٢) وجهاد الكفار والمنافقين في سبيل الله.

بل تشمل العبادة أمرًا له أهميته وخطره في الحياة المادية للناس، ذكره ابن تيمية في موضع آخر من رسالته، وهو الأخذ بالأسباب، ومراعاة السنن التي أقام الله عليها الكون قال «فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة»[2].

وأكثر من ذلك ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله: أن الدين كله داخل في العبادة. إذ الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال: دنته فدان، أي أذللته فذل. ويقال: يدين الله ويدين لله، أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له. والعبادة أصل معناها الذل أيضًا»[3].

---

(١) العبودية ص ٣٨ ط المكتب الإسلامي. ثانية. (٢) العبودية ص ٧٣. (٣) انظر ص ٤٣، ٤٤ من العبودية.

وبهذا يلتقى معنى الدين بأصل معنى العبادة لغة وشرعًا.

● العبادة تسع الحياة كلها

وإذا عرفنا أن الدين كله عبادة كما قال الإمام ابن تيمية، وعرفنا أن الدين قد جاء يرسم للإنسان منهج حياته، الظاهرة والباطنة، ويحدد سلوكه وعلاقاته، وفقًا لما يهدي إليه هذا المنهج الإلهي -عرفنا أن عبادة الله تسع الحياة كلها، وتنظم أمورها قاطبة: من أدب الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشئون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

ولهذا نجد كتاب الله الكريم يخاطب عباده المؤمنين بأوامر تكليفية وأحكام شرعية، تتناول جوانب شتى من الحياة، وفي سورة واحدة - هي سورة البقرة - نجد مجموعة من التكاليف كلها جاءت بصيغة واحدة «كتب عليكم» ولنقرأ هذه الآيات الكريمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: ١٧٨]. ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ [البقرة: ١٨٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فهذه الأمور كلها من القصاص، والوصية، والصيام، والقتال، مكتوبة من الله على عباده، أي مفروضة عليهم، فعليهم أن يعبدوا الله بالتزامها والانقياد لها.

وبهذا البيان يتضح لنا حقيقة هامة لا زال يجهلها الكثيرون من المسلمين. فبعض الناس لا يفهم من كلمة «العبادة» إذا ذكرت إلا الصلاة والصيام والصدقة والحج والعمرة، ونحو ذلك من الأدعية والأذكار، ولا يحسب أن لها علاقة بالأخلاق والآداب، أو النظم والقوانين، أو العادات والتقاليد.

إن عبادة الله ليست محصورة -إذن- في الصلاة والصيام والحج وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار، كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى

عبادة الله ، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفوا الإلهية حقها ، وقاموا بواجب العبودية لله كاملًا.

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في بناء الإسلام -على منزلتها وأهميتها- إنما هي جزء من العبادة لله ، وليست هي كل العبادة التي يريدها الله من عباده.

والحق أن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان ، وجعلها غايته في الحياة ، ومهمته في الأرض ، دائرة رحبة واسعة. إنها تشمل شئون الإنسان كلها ، وتستوعب حياته جميعًا.

● العبادة انقياد لمنهج الله وشرعه

إن مقتضى عبادة الإنسان لله وحده : أن يخضع أموره كلها لما يحبه تعالى ويرضاه ، من الاعتقادات والأقوال والأعمال ، وأن يكيّف حياته وسلوكه وفقًا لهداية الله وشرعه. فإذا أمره الله تعالى أو نهاه ، أو أحل له أو حرّم عليه كان موقفه في ذلك كله : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥].

ففرق ما بين المؤمن وغيره : أن المؤمن خرج من العبودية لنفسه وللمخلوقين إلى العبودية لربه. خرج من طاعة هواه إلى طاعة الله. ليس المؤمن (سائبًا) يفعل ما تهوى نفسه أو يهوى له غيره من الخلق. إنما هو «ملتزم» بعهد يجب أن يفي به ، وميثاق يجب أن يحترمه ، ومنهج يجب أن يتبعه. وهذا التزام منطقي ناشئ من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه.

مقتضى عقد الإيمان : أن يسلم زمام حياته إلى الله ، ليقودها رسوله الصادق ، ويهديه الوحي المعصوم.

مقتضى عقد الإيمان : أن يقول الرب : أمرت ونهيت. ويقول العبد : سمعت وأطعت.

مقتضى عقد الإيمان : أن يخرج الإنسان من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع مولاه.

وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب : ٣٦] ويقول : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور : ٥١].

ليس بعابد لله إذن من قال: أصلي وأصوم وأحج، ولكني حر في أكل لحم الخنزير، أو شرب الخمر، أو أكل الربا، أو رفض ما لا يروقني من أحكام الشريعة، فأحكم فيه بغير ما أنزل الله! ليس بعابد لله من أدى الشعائر، ولكنه لم يخضع لآداب الإسلام وتقاليده في نفسه أو أهله، كالرجل الذي يلبس الحرير الخالص ويتحلى بالذهب، ويتشبه بالنساء، والمرأة التي تلبس ما يبرز مفاتنها، ولا يغطي جسدها، ولا تضرب بخمارها على جيبها. ليس بعابد لله من ظن أن عبوديته لله لا تعدو جدران المسجد، فإن انطلق في ميادين الحياة المتشعبة، فهو عبد نفسه فقط، وبعبارة أخرى: هو حر في اتباع هواها، أو اتباع أهواء عبيد أنفسهم من المخلوقين!

● من اتبع غير منهج الله فقد أشرك في عبادته:

إن من العبادة التي يغفلها كثير من الناس: الخضوع لشرع الله والانقياد لأحكامه التي أحلَّ بها الحلال وحرَّم الحرام، وفرض الفرائض وحدَّ الحدود.

فمنْ أدى الشعائر وصلى وصام وحج واعتمر، ولكنه رضي أن يحتكم في شئون حياته الخاصة والعامة، أو في شئون المجتمع والدولة، إلى غير شرع الله، وحكمه، فقد عبد غير الله، وأعطى غيره ما هو من خالص حقه سبحانه.

إن الله وحده هو المشرع الحاكم لخلقه؛ لأن الكون كله مملكته، والناس جميعًا عباده، وهو وحده الذي له أن يأمر وأن ينهى، وأن يقول: هذا حلال، وهذا حرام، بمقتضى ربوبيته وملكه وألوهيته للناس، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس.

فمن ادعى من الخلق أن له أن يُشرِّع ما شاء، أمرًا ونهيًا وتحليلًا وتحريمًا، بدون إذن من الله، فقد تجاوز حده، وعدا طوره، وجعل نفسه ربًّا أو إلهًا من حيث يدرى أو لا يدرى!

ومن أقرَّ له بهذا الحق، وانقاد لتشريعه ونظامه، وخضع لمذهبه وقانونه، وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، فقد اتخذه ربًّا، وعبده مع الله، أو من دون الله، ودخل في زمرة المشركين من حيث يشعر أو لا يشعر!

إن القرآن الكريم دمغ أهل الكتاب بالشرك، ورماهم بأنهم عبدوا أحبارهم ورهبانهم، واتخذوهم أربابًا من دون الله، وذلك حين أطاعوهم واتبعوهم فيما شرعوا لهم مما لم يأذن به الله.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

وقد فسر هذه الآية أعلم الناس بمراد ربه -عز وجل- من كلامه، وهو الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والذي أوحى الله إليه هذا القرآن ليبينه للناس ولعلهم يتفكرون، فلنصغ إلى التفسير النبوي الكريم لهذه الآية الكريمة.

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير -من طرق- عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ، فَرَّ إلى الشام وكان قد تنصّر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ، على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرَّغبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة - وكان رئيسًا في قومه وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم - فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم! فقال: بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم. فذلك عبادتهم إياهم».

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وهكذا قال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسير ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حلَّلوا وحرَّموا.

وقال السدي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

قال: ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتُبع، وما حكم به نفذ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] [١] اهـ.

● الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة

وأكثر من ذلك: أن الإسلام قد فسح مجال العبادة ووسع دائرتها، بحيث شملت أعمالًا كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها الدين عبادة وقُربة إلى الله.

إن كل عمل اجتماعي نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات ما دام قصد فاعله الخير لا تصيد الثناء واكتساب السمعة الزائفة عند الناس. كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمد به جراح منكوب، أو يسد به رمق محروم، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضي به دين غارم مثقل، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال، أو يهدي حائرًا. أو يعلم جاهلًا، أو يؤوى غريبًا، أو يدفع شرًّا عن مخلوق أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعًا إلى ذي كبد رطبة - فهو عبادة وقربة إلى الله إذا صحت فيه النية.

أعمال كثيرة من هذا النوع جعلها الإسلام من عبادة الرحمن، وشعب الإيمان، وموجبات المثوبة عند الله.

فليست الصلاة أو الصيام أو الذكر والدعاء هي التي تكتب لك عبادة في يومك وتستوجب بها الأجر عند ربك. كلا. إنك تستطيع في اليوم الواحد أن تضيف إلى ميزان عبادتك وحسناتك أشياء كثيرة، لها ثقلها وقيمتها في تقدير الحق تبارك وتعالى، وإن بدت عندك هينة خفيفة في الميزان.

من ذلك ما قاله رسول الإسلام ﷺ عن الإصلاح بين المتخاصمين قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى.

قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[٢]، وفي رواية: «لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص: ٣٤٩.
(٢) رواه أبو داوود والترمذي وابن حبان في صحيحه. (٣) هذه الزيادة للترمذي.

ويقول عليه السلام في عيادة المريض وما لها من مكانة عند الله لما فيها من تخفيف ومواساة: «من عاد مريضًا ناداه مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلًا»[1] «من عاد مريضًا لم يزل يخوض في الرحمة حتى يجلس، فإذا جلس اغتمس فيها»[2].

ويروي لنا النبي ﷺ مشهدًا من المشاهد البديعة العميقة يوم القيامة في صورة حوار بين الله وعباده: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم.. مرضت فلم تعدني!! قال: يارب.. كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم.. استطعمتك فلم تطعمني! قال: يارب.. كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟! يا ابن آدم.. استسقيتك فلم تسقني. قال: يارب.. كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»[3].

ويروي الشيخان عن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخره فشكر الله له، فغفر له»، وفي رواية مسلم: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم.. فأُدخِلَ الجنة».

وعن أبي ذر قال: قال النبي ﷺ: «عرضت عليّ أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها: الأذى يُماط عن الطريق»[4].

والإسلام لا يستحب هذه الأعمال ويحمدها فحسب، بل هو يدعو إليها، ويحث عليها، ويأمر بها، ويجعلها من الواجبات اليومية على المسلم، التي تُقربه إلى الجنة، وتُبعده عن النار، وهو تارة يسميها «صدقة» وطورًا يسميها «صلاة» وهي على كل حال عبادة وقربة إلى الله الكريم.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه واللفظ له، ورواه الطبراني بنحوه من حديث أبي هريرة ورواته ثقات كما في الترغيب.
(٢) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح والبزار وابن حبان في صحيحه من حديث جابر، وابن جابر في صحيحه.
(٣، ٤) رواه مسلم.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : «سألت رسول الله ﷺ : ماذا ينجي العبد من النار؟ قال : الإيمان بالله.

قلت : يا نبي الله. . مع الإيمان عمل؟

قال : أن ترضخ مما خَوَّلك الله (أي تعطي مما ملكَك الله).

قلت : يا نبي الله. . فإن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ؟

قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قلت : فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟

قال : فليعن الأخرق (هو الجاهل الذي لا يعرف صنعة. يعينه على تعلم صنعة).

قلت : يا رسول الله. . أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟

قال : فليعن مظلومًا

قلت : يا نبي الله. . أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مظلومًا؟!

قال : ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟! ليمسك أذاه عن الناس.

قلت : يا رسول الله. . أرأيت إن فعل هذا يدخل الجنة؟

قال : ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة»[1].

بمثل هذه الروح يستحث نبي الإسلام كل مسلم - وإن يكن محدود الاستطاعة - أن يؤدي هذه العبادة أو «الضريبة» الاجتماعية. ولم يجعل الإسلام هذه العبادة موقوتة بزمان أو مرهونة بمكان ، كما لم يجعل هذه العبادة أو الضريبة مالية فينفرد بها الأغنياء ، ولا بدنية فيختص بها الأقوياء ، ولا ثقافية فيتميز بها المتعلمون ، ولكنه جعلها ضريبة إنسانية عامة ، يؤديها كل إنسان على قدر طاقته ، يشترك فيها الفقير والغني ، والضعيف والقوي ، والأمي والمتعلم.

---

(١) رواه البيهقي واللفظ له .

وإننا لنقرأ أحاديث النبي الكريم في هذا الباب، فنرى أنه لم يكتف بفرض هذه العبادة العامة على الإنسان من حيث هو إنسان فحسب، بل يشتد في طلبها، فيفرضها على كل ميسم من مياسمه، أو كل مفصل من مفاصله. فيروي أبو هريرة عن رسول الله ﷺ «كل سُلاميّ من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة. وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ويميط الأذى عن الطريق صدقة»(١).

ويروي ابن عباس نحو هذا عن الرسول ﷺ إذ يقول: «على كل ميسم من الإنسان صلاة كل يوم! فقال رجل من القوم: هذا من أشد ما أنبأتنا به! قال: أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة، وحملك عن الضعيف صلاة، وإنحاؤك القذر من الطريق صلاة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة»(٢).

ونحو ذلك ما رواه بريدة عنه ﷺ قال: «في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة. قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ -ظنوها صدقة مالية- قال: النخامة في المسجد تدفنها، والشيء تنحيه عن الطريق. .»(٣).

وقد وردت أحاديث عديدة تجعل تبسم المرء في وجه أخيه صدقة وإسماع الأصم، وهداية الأعمى، وإرشاد الحيران، ودلالة المستدل على حاجته، والسعي بشدة الساقين مع اللهفان المستغيث، والحمل بشدة الذراعين مع الضعيف، وما يدور في هذا الفلك من الأعمال، عدَّه رسول الإسلام عبادة كريمة، وصدقة طيبة.

وبهذا يعيش المسلم في مجتمعه ينبوعًا يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنفع والبركة، يفعل الخير ويدعو إليه، ويبذل المعروف ويدل عليه، فهو مفتاح للخير، مغلاق للشر، كما حثه النبي الكريم(٤).

وأفق الخير والنفع الذي يعيش المسلم في دائرته ليس خاصًّا بالإنسان وحده، وإنما

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه.
(٣) رواه أحمد واللفظ له وأبو داوود وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.
(٤) كما في حديث ابن ماجه "طوبي لعبد جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر".

يتسع فيشمل كل كائن حي في الوجود حتى الطير والحيوان، فكل إحسان يسديه إليه أو أذى يدفعه عنه عبادة تقربه إلى الله، وتوجب له رضاه.

وقد حدث النبي ﷺ أصحابه عن رجل وجد كلبًا يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فنبضت عروق الرحمة في قلبه، وعَزَّ عليه أن يدع هذا الكلب في حرقة وشدة ظمئه، فذهب به إلى بئر فنزع خفه وملأه منها، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. . سمع الصحابة هذه القصة فقالوا في عجب: أئن لنا في البهائم لأجرًا يا رسول الله؟

قال: «في كل كبد رطبة - أي فيها حياة - أجر»[1].

وفي هذه الدائرة الرحبة من أعمال البر التي شملت الإنسان وغير الإنسان يجد المهتمون بالعبادة، الراغبون في الإكثار منها، والمهتمون بخدمة المجتمع والإحسان إلى الخلق أيضًا ما يشبع نهمهم ويتجاوب مع أشواقهم، بدل أن يحصروا في عبادات «الصوامع» وحدها وينقطعوا عن ركب الحياة.

● عمل الإنسان في معاشه عبادة بشروط

وأعجب من هذا أن النبي ﷺ يجعل الأعمال الدنيوية التي يقوم بها الإنسان لمعيشته، والسعي على نفسه وأهله، من أبواب العبادة والقربات إلى الله، وإن لم يتعد نفعها دائرته الشخصية والأسرية. فالزارع في حقله، والعامل في مصنعه، والتاجر في متجره، والموظف في مكتبه، وكل ذي حرفة في حرفته، يستطيع أن يجعل من عمله المعاشي صلاة وجهادًا في سبيل الله، إذا التزم فيه الشروط الآتية:

١- أن يكون العمل مشروعًا في نظر الإسلام. أما الأعمال التي ينكرها الدين كالعمل في الربا والحانات، والمراقص ونحوها، فلا تكون ولن تكون عبادة أبدًا. . إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.

٢- أن تصحبه النية الصالحة: نية المسلم إعفاف نفسه، وإغناء أسرته، ونفع أمته، وعمارة الأرض، كما أمر الله.

---

(١) رواه البخاري.

٣- أن يؤدي العمل بإتقان وإحسان ففي الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»[١] «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»[٢].

٤- أن يلتزم فيه حدود الله فلا يظلم ولا يخون، ولا يغش ولا يجور على حق غيره.

٥- ألا يشغله عمله الدنيوي عن واجباته الدينية كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۚ﴾ [النور: ٣٧].

إذا راعى المسلم هذه الأمور كان في سعيه عابدًا وإن لم يكن في محراب، مبتهلًا إلى الله وإن لم يكن في صومعة.

عن كعب بن عجرة قال: مَرَّ على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله. لو كان هذا في سبيل الله؟! -أي في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وكان أفضل العبادات عندهم- فقال: إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»[٣].

ويخلع القرآن على السعي في مناكب الأرض، لطلب الرزق تسمية جميلة موحية برضا الله، فيسمي ذلك «الابتغاء من فضل الله» مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨] ويقرن المسافرين للرزق بالمجاهدين لله في سياق واحد إذ يقول: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [المزمل: ٢٠].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة وفيه راو تكلم فيه. وكذا رواه أبو يعلى وابن عساكر وغيرهما، كما في «الفيض».

(٣) قال المنذري: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

والنبي ﷺ يقول في فضل الزرع والغرس وما يجلب لصاحبه من مثوبة عند الله: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[1].

ويعلن أن «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[2].

وفي ظل هذه التعاليم لا يجوز للمسلم -ولا يتصور منه- أن يكون عالة على غيره، أو عبئًا على المجتمع: يأخذ من الحياة ولا يعطيها، ويعتزل الناس والحياة باسم التفرغ للعبادة أو التبتل. بل يندفع بغير وازع خارجي إلى كل ميادين الحياة منتجًا متقنًا متفوقًا، وهو يوقن أنه في صلاة وجهاد!

● حتى أعمال الغريزة وقضاء الشهوة

على أن الأروع مما تقدم كله أن تشمل العبادة الحاجات الضرورية التي يؤديها المسلم استجابة لدافع الغريزة البشرية. فالأكل والشرب ومباشرة الزوج لزوجته، وما كان من هذا القبيل يدخله الإسلام في دائرة العبادة الفسيحة بشرط واحد هو «النية». فالنية هي المادة السحرية العجيبة التي تضاف إلى المباحات والعادات فتصنع منها طاعات وقربات.

وأوضح شاهد على ذلك ما قاله النبي ﷺ لأصحابه: «وفي بُضْعِ[3] أحدكم صدقة قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم قال كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»!![4] قال العلماء: وهذا من تمام رحمة الله على عباده، يثيبهم على ما فيه قضاء شهواتهم إذا نووا أداء حق الزوجة وإحصان الفرج ولله الحمد.

● صحح وجهتك تكن كل حياتك عبادة

بحسب المسلم أن ينظر إلى نفسه على أنه خليفة لله في الأرض، مهمته أن ينفذ أمره، ويقيم حدوده ويعلي كلمته، ويقوم بواجب العبودية له تعالى، بحسبه ذلك لتصطبغ أعماله

(١) متفق عليه. (٢) رواه الترمذي وحسنه.
(٣) البضع: قال في القاموس: الجماع أو الفرج نفسه. (٤) رواه مسلم والترمذي.

كلها بصبغة ربانية، وليكون ما يصدر عنه من أقوال وأفعال وحركات وسكنات عبادة لله رب العالمين.

وهذا هو الموافق لما تعطيه الآية الكريمة من معنى كبير: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فأين هي العبادة التي جعلها الله غاية لخلقهم إذا حصرنا معنى العبادة في تلك الشعائر التي لا تستغرق إلا دقائق معدودات من يوم الإنسان وليلته. أما جل الوقت ففي معترك الحياة، ويعجبني ما قاله هنا الأستاذ محمد الغزالي[1]:

«إن الإسلام ليس أفعالًا تعد على الأصابع دون زيادة أو نقص. كلا.. إنه صلاحية الإنسان للمسير في الحياة وهو يؤدي رسالة محددة.

فالمهندس الذي يصنع آلة ما لا يعنيه كم تنتج من السلع والأدوات، وإنما يعنيه أن تكون أجهزتها مستعدة على الدوام لإنجاز ما تتكلف به.

فصلاحية الطيارة للانطلاق. وصلاحية المدفع للقذف. وصلاحية القلم للكتابة... هذه الصلاحيات هي مناط الحكم على قيمة الشيء فإذا اطمأننا إلى وجودها قبلناها ورجونا ثمرتها.

كذلك الإنسان، إن الإسلام يريد أن تستقيم أجهزته النفسية أولًا. فإذا توفرت لها صلاحيتها المنشودة، بصدق اليقين، وسلامة الوجهة، فكل عمل تتعرض له في الحياة يتحول من تلقاء نفسه إلى طاعة الله. إن آلة سك النقود يدخلها المعدن الغفل -الخام- فيخرج منها عملة مالية غالية الثمن، تحمل من الألوان والأختام والشارات ما يجعلها شيئًا آخر. كذلك المسلم يعالج ما يعالج من شئون الدنيا، فيضفي عليه من طبيعة إيمانه وسناء وجهته ما يجعل أي عمل يقبل عليه يتحول في يده إلى عبادة غالية القدر.

وبهذه الصلاحية النفسية رفض الله دعوى أصحاب الدعاوى الذين اغتروا ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

(١) في كتاب «هذا ديننا» ص. ٨٤.

في شئون الحياة ليس للأعمال الصالحة حصر تنتهي عنده ولا رسم تخرج فيه. إنما هو إسلام الوجه لله وإصلاح العمل والبلوغ به حد الكمال المطلوب».

● **آثار هذا الشمول في النفس والحياة**

إن شمول معنى العبادة في الإسلام - كما شرحناه - له آثار مباركة في النفس والحياة يحسها الإنسان في ذاته. ويلمسها في غيره. ويرى ظلالها في الحياة من حوله. وأبرز هذه الآثار وأعمقها أمران :

الأول : أنه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية ، ويجعله مشدودًا إلى الله في كل ما يؤديه للحياة ، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع ، وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع. وكل إنتاج صالح ، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة ، على أمثل وجوهها. فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله عز وجل. كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه ، ما دام يقدمه هدية إلى ربه سبحانه ، ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته.

والثاني : أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة ، ووحدة الغاية في حياته كلها ، فهو يرضي ربًّا واحدًا ، في كل ما يأتي ويدع ، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله : الديني والدنيوي ، ولا انقسام ولا صراع ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته.

إنه ليس ممن يعبدون الله في الليل ، ويعبدون «المجتمع» في النهار.

وليس ممن يعبدون الله في المسجد ، ويعبدون «الدنيا» أو «المال» في ساحة الحياة.

وليس ممن يعبدون الله في يوم من أيام الأسبوع ثم يعبدون ما سواه ومن سواه سائر أيام الأسبوع.

كلا. . إنه يعبد الله وحده حيثما كان ، وكيفما كان ، وفي أي عمل كان. . فوجه الله لا يفارقه في عمل ولا حال ولا زمان ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١١٥].

وبهذا ينصرف همه كله إلى الله ، ويجتمع قلبه كله على الله ، ولا يتوزع شمل حياته

وفكره وإرادته ووجدانه بين شتى الاتجاهات ، والتيارات والانقسامات.

إن حياته كلها وحدة لا تتجزأ. منهجه فيها عبادة الله ، وغايته رضوان الله. ودليله وحي الله.

يقول المسلم النمساوي الأستاذ محمد أسد في بيان مزية العبادة في الإسلام :

«يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في كل دين آخر. إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص ، كالصلاة والصيام مثلًا ، ولكنها تتناول «كل» حياة الإنسان العملية أيضًا. ولذا كانت الغاية من حياتنا على العموم «عبادة الله» فيلزمنا حينئذ - ضرورة - أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعة أدبية ، متعددة النواحي. وهكذا يجب أن نأتي أعمالنا كلها -حتى تلك التي تظهر تافهة- على أنها عبادات ، وأن نأتيها بوعي ، وعلى أنها تؤلف جزءًا من ذلك المنهاج العالمي الذي أبدعه الله. . تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد. ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع؟

إن موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل. إنه يعلمنا أولًا : أن عبادة الله الدائمة ، والمتمثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها ، هي معنى الحياة نفسها ، ويعلمنا ثانيًا : أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلًا ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين : حياتنا الروحية. وحياتنا المادية. . يجب أن تقترن هاتان الحياتان في وعينا وفي أعمالنا لتكوّن (كلًا» واحدًا متسقًا. . إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.

هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه. هي فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة. ذلك أن الإسلام -على أنه تعليم- لا يكفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط ، ولكن يعرض أيضًا - بمثل هذا التوكيد على الأقل - للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية. .

إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صدقة عادية فارغة ، ولا على أنها طيف خيال

للآخرة، التي هي آتية لا ريب فيها، من غير أن تكون منطوية على معنى ما، ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسها. والله تعالى «وحدة» لا في جوهره فحسب، بل في الغاية إليه أيضًا. من أجل ذلك كان خلقه وحدة، ربما في جوهره، إلا أنه وحدة في الغاية منه بكل تأكيد.

وعبادة الله في أوسع معانيها -كما شرحنا آنفًا- تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية. . هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال - في إطار حياته الدنيوية الفردية - ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام - وحده - يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا. . إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات «الجسدية»، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من «تناسخ الأرواح» على مراتب متدرجة - كما هي الحال في الهندوكية - ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانقسام علاقاتها الشعورية من العالم. . كلا. إن الإسلام يؤكد في إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية. وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته هو»[1].

● سؤالان وجوابهما

يعن لبعض الناس هنا سؤال يحتاج إلى جواب. وهو: إذا كانت العبادة تشمل الدين كله - كما قال ابن تيمية - فلماذا عطف القرآن عليها غيرها من أوامر الدين ونواهيه، في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] وقوله تعالى على لسان شعيب: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

فهذه الأشياء المعطوفة على العبادة تدل على أنها غيرها، فإن العطف يقتضى المغايرة، كما هو معلوم. فما تفسير ذلك؟

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٢١ - ٢٣ ترجمة الدكتور عمر فروخ.

وسؤال آخر يرد هنا أيضًا، وهو: إذا كان الدين كله عبادة، فلماذا قسم الفقهاء أحكام الشرع إلى «عبادات» و «معاملات»؟

أما السؤال الأول. فجوابه يسير، وهو: أن عطف الخاص على العام مألوف في العربية، ومأنوس لدى البلغاء، وذلك للتنبيه على مزية في الخاص اقتضت إفراده بالذكر، كأنه جنس مستقل. مع دخوله في إفراد العام. كما أن عكسه أيضًا معروف، وهو عطف العام على الخاص.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] فنص على إيتاء ذي القربى مع أنه يدخل في الإحسان. وكذلك خص الفحشاء بالذكر مع دخولها في عموم المنكر وكذلك البغي. وأمثلة هذا في القرآن كثيرة.

وأما السؤال الثاني. فجوابه: أن تقسيم الفقهاء الأحكام الشرعية العملية إلى عبادات ومعاملات، إنما هو اصطلاح منهم، أرادوا به التفريق بين نوعين من الأحكام.

النوع الأول: يضم الصور والكيفيات المحددة التي شرعها الله تعالى، ليتقرب عباده إليه بأدائها. فالشارع هو المنشئ لها والآمر بها. وليس للعباد فيها إلا التلقي والتنفيذ. وتلك هي الشعائر التعبدية التي لا يخلو دين منها. وبها يمتحن الله عباده، وبها تظهر حقيقة العبودية، حيث لا يبدو للعباد فيها حظ شخصي لأول وهلة.

أما النوع الثاني: فهو يشمل الأحكام التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض في حياتهم ومعايشهم ومبادلاتهم. فهذه العلاقات والنشاطات لم ينشئها الشرع، بل هي موجودة قبله. ومهمة الشارع هنا: أن يُعَدِّلها، ويهذبها ويقر الصالح منها، والنافع، ويمنع الفاسد والضار.

وبهذا يتبين لنا أن موقف الشرع من النوع الأول الذي سماه الفقهاء «العبادات» غير موقفه من النوع الثاني الذي سموه «المعاملات». فهو في الأولى منشئ مخترع، وليس من حق غيره أن ينشئ أو يتبدع صورًا للعبادة من عند نفسه لم يأذن بها الله. وفيه جاءت بذلك

الأحاديث : «من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو ردٌّ وكل بدعة ضلالة».

وهو في الثانية مصلح لما أنشأه الناس وأوجدوه فعلًا.

وبناءً على هذا قرروا أن الأصل في العبادات الحظر والمنع، حتى لا يشرع الناس في الدين ما لم يأذن به الله. أما في العادات والمعاملات فالأصل فيها الإباحة[1].

وهناك فائدة أخرى لهذا التقسيم، نبَّه عليها الإمام الشاطبي وغيره وهي : أن الأصل في جانب العبادات هو التعبد، دون الالتفات إلى المعاني والمقاصد. أما العادات أو المعاملات فالأصل فيها الالتفات إلى ما وراءها من المعاني والحكم والمقاصد.

فإذا أمر الشارع مثلًا بذبح الهدي في الحج. فهذا أمر تعبدي لا يجوز تركه والتصدق بثمن الهدي، لما في ذلك من تعطيل هذه العبادة الشعائرية.

ولكن إذا حث الشارع على رباط الخيل واقتنائها والاهتمام بها لقتال الأعداء، ثم تغير الزمن وأصبح الناس يركبون للحرب الدبابات والمدرعات بدل الخيل، أصبح الاهتمام بهذه الأسلحة الجديدة هو التنفيذ العملي لما جاء من حث على رباط الخيل. بناء على رعاية المعاني والمقاصد التي تفهم من وراء ما جاءت به نصوص الشرع هنا.

فهذا هو سر تقسيم الفقهاء أحكام الفقه إلى عبادات ومعاملات، وهذا هو أثره. وإن كان التزام أحكام الشرع في كل المجالات هو عبادة بالمعنى الشامل الذي بيناه من قبل.

غير أن هذا التقسيم الاصطلاحي الفني الذي هو طابع التأليف العلمي أنشأ فيما بعد، كما ذكر الشهيد سيد قطب - آثارًا سيئة في التصور، تبعته - بعد فترة - آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها. إذ جعل يترسب في تصورات الناس : أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات» بينما أخذت الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله فقه المعاملات.

إن ذلك التقسيم -مع مرور الزمن- جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدوا نشاط «العبادات» وفق أحكام الإسلام، بينما هو يزاولون كل نشاط

(١) انظر كتابنا «الحلال والحرام» ص ٢١ ط خامسة قاعدة «الأصل في الأشياء والتصرفات الإباحة».

«المعاملات» وفق منهج آخر، لا يتلقونه من الله، ولكن من إله آخر! هو الذي يشرع لهم في شئون الحياة ما لم يأذن به الله!

وهذا وهم كبير، فالإسلام وحدة لا تنفصم، وكل من يفصمه إلى شطرين -على هذا النحو- فإنما يخرج من هذه الوحدة، أو بتعبير آخر: يخرج من هذا الدين[1].

ولا ريب أن هذا الانحراف الذي وقع في تصور كثير من المسلمين لحقيقة الإسلام، وحقيقة العبادة فيه، لم يكن مقصودًا للفقهاء، ولا هم مسئولون عنه، فإن ما صنعوه من التقسيم هو مقتضى التصنيف والتأليف العلمي كما ذكر المرحوم سيد قطب نفسه، ولم يستطع من ألف في الفقه في عصرنا أن يستغنى عن هذا التقسيم أيضًا.

على أن هذا التقسيم إنما يأتى إذا كتبوا في الفقه - فإذا كتبوا في غيره وجدنا مثل ابن تيمية يصرح بأن العبادة تشمل الدين كله. كما ذكرنا. ووجدنا مثل ابن القيم يدخل الدين كله أيضًا في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ كما سيأتي قريبًا في بيانه لمراتب العبودية الخمسين.

● شمول العبادة لكيان الإنسان كله

هذا هو المظهر الثاني لشمول العبادة في الإسلام.

فكما شملت العبادة في الإسلام الحياة كلها، استوعبت كذلك كيان الإنسان كله.

فالمسلم يعبد الله بالفكر، ويعبد الله بالقلب، ويعبد الله باللسان، ويعبد الله بالسمع والبصر وسائر الحواس، ويعبد الله ببدنه كله، ويعبد الله ببذل المال، ويعبده ببذل النفس، ويعبده بمفارقة الأهل والوطن.

المسلم يتعبد لله بالفكر، عن طريق التأمل في النفس والآفاق، والتفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، والتدبر لآيات الله المنزلة وما فيها من هدى وحكمة، والنظر في مصاير الأمم وأحداث التاريخ وما فيها من عظة وعبرة. فهذا كله مما يتقرب به المسلم إلى الله الذي أنزل كتابه إلى الناس ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٢٩، ١٣٠.

ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. ودعاهم في محكم كتابه إلى إعمال العقل نظرًا وتفكرًا وتعلمًا ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقد ورد عن ابن عباس: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[١].

وقال الرسول ﷺ: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة»[٢].

وقال الشافعي رضي الله عنه: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة» ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه. وقال وهب: كنت بين يدي مالك رضي الله عنه فوضعت ألواحي، وقمت أصلي، فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي قمت عنه[٣].

ويتعبد المسلم لله بالقلب عن طريق العواطف الربانية والمشاعر الروحية مثل: حب الله وخشيته، والرجاء في رحمته والخوف من عقابه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والشكر لنعمائه، والحياء منه، والتوكل عليه، والإخلاص له، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ويتعبد المسلم لله باللسان عن طريق الذكر والتلاوة والدعاء والتسبيح والتهليل والتكبير جاء في القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقال عليه الصلاة والسلام: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»[٤] وقال رجل للنبي ﷺ: إن شرائع

---

(١) رواه أبو الشيخ موقوفًا. وروى مرفوعًا بإسناد ضعيف من حديث أبي هريرة «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»، رواه ابن حبان في كتاب العظمة، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٢) رواه أحمد عن أبي هريرة. (٣) مدارج السالكين جـ ٣.

(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبي أمامة.

الإسلام قد كثرت عليّ فمرني بأمر أتشبث به. فقال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»[1].

والذكر نوعان: ذكر ثناء مثل «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وذكر دعاء مثل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2] [الأعراف: ٢٣].

وقد جاء من النوعين عن النبي ﷺ أدعية وأذكار كثيرة، في مختلف المناسبات والأوقات، تجعل المسلم موصول القلب بربه، ورطب اللسان بذكره تعالى: عند النوم واليقظة، وعند الإصباح والإمساء، وعند الأكل والشرب، وعند السفر والأوبة، عند لبس الثوب، وركوب الدابة، وهبة الريح ونزول المطر. . وفي كل حال وكل حين. وقد ألف العلماء في ذلك كتبًا شتى[3].

والذكر المحمود هو ما اجتمع فيه القلب واللسان، ولا خير في ذكر اللسان إذا كان القلب ناسيًا غافلًا.

ويتعبد المسلم لله ببدنه كله: إما كفًّا وامتناعًا عن ملذات البدن وشهواته، كما في الصيام. وإما حركة وعملًا ونشاطًا، كما في الصلاة التي يتحرك فيها البدن كله: اللسان والأعضاء، مع العقل والقلب.

ويتعبد المسلم لله ببذل المال الذي هو شقيق الروح، كما في الزكاة والصدقات، وهذا ما يسميه الفقهاء «العبادة المالية» كما سموا الصلاة والصوم «العبادة البدنية» ويعنون بكلمة «البدن» هنا كيان الإنسان كله لا الجسم المادي وحده. فإن النية شرط لكل عبادة، ومحلها القلب بالإجماع، وعبادة المجنون والسكران ونحوها لا تصح ولا تقبل ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ويتعبد المسلم لله ببذل مهجته والتضحية بنفسه وبمصالحه المادية العاجلة، ابتغاء

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) وقد ورد على لسان آدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة.

(٣) من أفضلها كتاب «الأذكار» للإمام النووي، و«الكلم الطيب» لشيخ الإسلام ابن تيمية و «الوابل الصيب» للإمام ابن القيم.

مرضاة الله، كما في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ويتعبد المسلم لله بمفارقة الأهل والوطن والضرب في الأرض: إما للحج والعمرة، وإما للهجرة إلى أرض يستطيع فيها المسلم إقامة دينه، وإما للجهاد في سبيل الله، وإما لطلب علم نافع، أو نحو ذلك، مما يبذل فيه المسلم - عادة - راحة بدنه وحُرّ ماله. ولهذا نعتبر هذا النوع من العبادات «بدنيًا وماليًا» معًا حسب التقسيم الفقهي المتعارف.

● مراتب العبودية الخمسون موزعة على القلب والبدن

وقد قرأت لابن القيم -رضي الله عنه- تفصيلًا حسنًا في مراتب العبودية لله، وحظ القلب واللسان والجوارح والحواس كلها من هذه العبودية الشاملة، رأيت أن أنقله هنا -ببعض تصرف- من كتابة القيم النافع «مدارج السالكين، شرح منازل السائرين، إلى مقامات» ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال:

«ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب، واللسان والجوارح.

● حظ القلب من العبودية لله

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة. وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية : تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضع وتسعين، وله طرفان أيضًا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية.

ومن هذا أيضًا اختلافهم في الخشوع في الصلاة، وفيه قولان للفقهاء، وهما في مذهب أحمد وغيره.

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته؛ فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالي في إحيائه، ولم يوجبها أكثر الفقهاء.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء -وهو القلب- قائمًا بعبوديته سبحانه، هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشدّ تحريمًا من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلّا باجتنابها والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها. فوظيفة ﴿إِيَّاكَ

﴿نَعْبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضًا: شهوة المحرمات وتمنيها. وتتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى. فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق. وشهوة الكبائر: معصية. . فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزًا بعد بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع. ولهذا قال النبي ﷺ: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» فنَزَّله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

● حظ اللسان من العبودية لله

وأما عبوديات اللسان الخمس فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه ردّ السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث

الله به رسوله. والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسبّ المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب وشهادة الزور، والقول على الله بغير عام. وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به. مع عدم العقوبة عليه.

● حظ الجوارح والحواس من العبودية لله

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا، إذ الحواس خمسة، وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

● حظ السمع

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة، من ردّة، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسرّه، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخشى الفتنة بأصواتهنّ إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

والمباح ظاهر.

● حظ النظر

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها،

والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينَها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامِل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدلّ بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحه فيه، فإن له فضولًا كما للسان فضولًا، وكم قاد فضولهما إلى فضول عزّ التخلص منها وأعيا دواؤها، وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات، وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه، لم يكن عليه شيء، وذهبت هَدَرًا، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته، وإن ضعفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله.

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور -أو مأذون له- في الاطلاع عليها.

● حاسة الذّوق وحظها من العبودية لله

وأمّا الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت. فإن تركه حتى مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسه؛ قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك، على أصح القولين. وإن ظن

الشفاء به، فهل هو مستحب مباح؟ أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذَوْق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها.

وفي السُّنن: أن رسول الله ﷺ «نهى عن طعام المتباريين» وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به من الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

- **حاسة الشم**

وأما تعلّق العبوديات الخمس بحاسة الشم. فالشم الواجب: كل شم تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به وما لا يملك؟ ومن هذا شمّ المقوِّم وربّ الخبرة، عند الحكم بالتقويم، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوى الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ «مَن عُرض عليه ريحان فلا يردّه، فإنه طيب الريح، خفيف المحمل».

والمكروه : كشمّ طِيب الظَّلَمة ، وأصحاب الشبهات ، ونحو ذلك.

والمباح : ما لا منع فيه من الله ولا تبعة ، ولا فيه مصلحة دينية ، ولا تعلق له بالشرع.

● **حاسة اللمس**

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس ، فاللمس الواجب : كلمس الزوجة حين يجبُ جماعها ، والأمة الواجب إعفافها.

والحرام : لمس ما لا يحلّ من الأجنبيات.

والمستحب : إذا كان فيه غض بصره ، وكف نفسه عن الحرام ، وإعفاف أهله.

والمكروه : لمس الزوجة في الإحرام للذة. وكذلك في الاعتكاف ، وفي الصيام ، إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت – لغير غاسله – لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريمًا له. ولهذا يستحب ستره عن العيون ، وتغسيله في قميصه في أحد القولين ، ولمس فخذ الرجل ، إذا قلنا : هي عورة.

والمباح : ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

● **البطش باليد والرجل**

وهذه المراتب أيضًا مرتبة على البطش باليد والمشي بالرجل. وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله : واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف. والصحيح : وجوبه ليمكنه من أداء دينه ، ولا يجب لإخراج الزكاة. وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى في الدليل : وجوبه لدخوله في الاستطاعة ، وتمكنه بذلك من أداء النسك ، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب : إعانة المضطر ، ورمي الجمار ، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام : كقتل النفس التي حرّم الله قتلها ، ونهب المال المعصوم ، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك ، وكأنواع اللعب المحرّم بالنص : كالنرد ، أو ما هو أشد تحريمًا

منه عند أهل المدينة كالشطرنج أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم[1]. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردّها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولا سيما إن كسبت عليه مالًا ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم. والإحسان بيده بأن يعين صانعًا أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو فيما يحتاج إليه ونحو ذلك. ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلًا، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رجْل الشيطان، قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فقال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

---

(١) انظر رأينا في لعب الشطرنج في كتابنا «الحلال والحرام» ص: ٢٩٠، ٢٩١ ط خامسة.

● **حتى الركوب على الدابة**

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه : في الركوب في الغزو ، والجهاد ، والحج لحواجب.

ومستحبه : في الركوب المستحب من ذلك ، ولطلب العلم ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وفي الوقوف بعرفة نزاع : هل الركوب فيه أفضل أم على الأرض؟ والتحقيق : أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة : من تعليم للمناسك ، واقتداء به ، وكان أعون على الدعاء ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه : الركوب في معصية الله عز وجل.

ومكروهه : الركوب للّهو واللعب ، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء ، القلب ، واللسان ، والسمع ، والبصر ، والأنف ، والفم ، واليد ، والرجل ، والفرج ، والاستواء على ظهر الدّابة». اهـ تفصيل ابن القيم.

وبهذا البيان المستوعب يتضح لنا شمول العبادة في الإسلام للإنسان كله من قرنه إلى قدمه ظاهره وباطنه ، وأن حياة المسلم ليست حياة سائبة ، إنما هي في جوهرها تعبد والتزام.

● **أيّ العبادات أفضل؟**

وإذا كانت العبادة في الإسلام لها ذلك الشمول الذي شرحناه ، فأي أنواع العبادات وصورها أفضل ، وأحب إلى الله ، وأعظم منزلة لديه ، وزلفى إليه؟

لقد فصّل المحقق ابن القيم الجواب عن هذا السؤال تفصيلًا يشفي الصدور ، ذاكرًا اختلاف طرق السالكين في ذلك ، ووجهة كل منهم ودليله ، مرجحًا ما رآه أقرب إلى الحق ، وأولى بالصواب.

قال رحمه الله :

«أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها ، وأحقها بالإيثار

والتخصيص ، أربع طرق ، فهم في ذلك أربعة أصناف :

● **القائلون بأن أفضل العبادات أشقها على النفس**

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد.

قالوا : والأجر على قدر المشقة. ورووا حديثًا لا أصل له : «أفضل الأعمال أحمزها»[1] أي أصعبها وأشقها. وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا : إنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

● **القائلون بأنه الزهد والتجرد**

الصنف الثاني : قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه ، ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة. فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها.

وخواصهم : رأوا هذا مقصودًا لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان. فالعارفون المتبعون منهم : إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ، ولو فرّقهم وأذهب جمعيتهم. والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب على الله.

---

(١) وكذا قال الزركشي والسيوطي : لا يعرف. كما في كشف الخفاء للعجلوني جـ ١ ص ١٥٥ . وذكر ابن حجر في اللآلئ عقبه : أن مسلمًا روى في صحيحه قول عائشة : «إنما أجرك على قدر نصبك» ولهذا قال القاري في الموضوعات الكبرى : معناه صحيح مستدلاً بحديث عائشة. ولكنه موقوف. وقد لا يطرد. وقد ورد : «إن الله يحب أن تؤتى رخصه . .».

فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه. وربما يقول قائلهم :

يـطـالـب بـالأوراد مـن كـان غـافـلًا فـكـيـف بـقـلـب كـل أوقـاتـه ورد؟!

ثم هؤلاء أيضًا قسمان. منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته. ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل ، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعض هؤلاء شيخًا عارفًا ، فقال : إذا أذَّن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله ، فإن قمت وخرجت تفرقت ، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي ، فما الأفضل في حقي؟

فقال : إذا أذَّن المؤذن وأنت تحت العرش فقم ، وأجب داعي الله ، ثم عد إلى موضعك! وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب ، وإجابة الداعي حق الرب. ومن آثر حظ روحه على حق ربه ، فليس من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ .

● القائلون بأن أفضل العبادات ما كان منه نفع الغير

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعدٍّ -أي تتعدى منفعته إلى الغير- فرأوه أفضل من النفع القاصر. فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل ، فتصدوا له وعملوا عليه. واحتجوا بقول النبي ﷺ : «الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النفّاع متعد إلى الغير. وأين أحدهما من الآخر؟

قالوا : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا : وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم» وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي. واحتجوا بقوله ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء» واحتجوا بقوله ﷺ : «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير» وبقوله ﷺ : «إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان

في البحر، والنملة في جحرها».

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، ولم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب. ولهذا أنكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله. ونفع عباده، والإحسان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

● القائلون بأن لكل وقت عبادته الأفضل

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في وقت السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أقوات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أقوات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن

الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، ولا سيما التكبير والتهليل والتحميد ، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير ، فهي خير من اعتزالهم ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلًا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها. واشتغل بها حتى تلوح له منزلة

أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره. فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العبّاد رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم. فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم. ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها من العبادات. بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه. فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا: ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم. حر مجرد. دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه. ويدور معه حيث استقلت مضاربه. يأنس به كل محق. ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها. وكلها منفعة. حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله»[1]. اهـ.

* * *

(١) مدارج السالكين لابن القيم جـ ١ ص ٨٥ - ٩٠ .